(٣٧) خطبة له ﷺ فى التذكير بالآخرة وما فيها من خير وشر

عن أنس رضي الله عنه، قال: « خطب رسول الله ﷺ خطبة ما سمعت مثلها قَطُّ[١] فقال:

« **لو تَعلَمونَ مَا أَعْلَمُ لضَحِكْتُمْ قَليلاً وَلَبكَيْتُمْ كَثيراً** ».

فغطَّى أصحابُ رسول الله ﷺ وجوههم، لهم خَنين»[٢].

(رواه البخارى، ومسلم)

وفى رواية: « بلغ رسول الله ﷺ عن أصحابه شىء فخطب، فقال:

« **عُرِضَتْ علىَّ الجَنَّةُ والنَّار[٣]، فَلَمْ أرَ كاليومِ فى الخَيرِ والشَّرِّ[٤] ولو تعلمونَ ما أعلمُ لَضَحِكْتُم قليلاً ولبكيتُم كثيراً** »[٥]. فما أتى على أصحاب رسول الله ﷺ يوم أشدّ منه[٦] غطّوا رؤوسهم ولهم خنين ».

---

(١) ولا عجب فهو ﷺ أفصح الناس وأعظمهم بياناً وأبلغهم موعظة.

(٢) قال فى النهاية: « هو ضرب من البكاء دون الانتحاب، وأصل الخنين خروج الصوت من الأنف . . ».

(٣) يعنى: مثلتا له ﷺ على الصفة التى عليها كل منهما . . فمثلت له الجنة بما فيها من نعيم . . ومثلت له النار وما فيها من أهوال . . إلخ.

(٤) يعنى أن ما رأيته من الخير والشر فى هذا اليوم أكثر من أى يوم مضى.

(٥) وذلك لغلبة الحزن والخوف.

(٦) وذلك لشدة تأثرهم بالموعظة وتمثلهم لما اشتملت عليه من أمور مفظعة مخوفة.

فى هذه الخطية ـ كما قرأنا ـ يريد النبى ﷺ أن يذكِّر أصحابه ويذكِّرنا من خلالهم : بأنه لو علم الإنسان ما يعلمه الرسول ﷺ عن الموت وما بعده لما ضحك ، ولبكى كثيراً وكثيراً .

وذلك لأن التذكير بالموت هو الواعظ الحقيقى الذى لا واعظ سواه . وقد ورد فى الحديث الشريف : « **كَفَى بالموتِ وَاعِظاً** » .

ولهذا ، فقد تأثر الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ تأثراً كبيراً بهذه الموعظة التى كان لها أثرها المؤثر فى حياتهم ، وفى جميع معاملاتهم وسلوكهم .

ولا سيما إذا كان التذكير هذا مصحوباً بالتذكير بالنَار وما فيها من أهوال ، والجنة وما فيها من نعيم .

وإذا كان الرسول ﷺ قد مثل له هذا ـ كما جاء فى نص الخطبة ـ فإنه لا شك كان قمة فى وعظه وتذكيره .

وحسبنا أن نؤمن بأنه ﷺ لا ينطق عن الهوى ؛ حتى ننتفع بوعظ الرسول ﷺ ، ونكون كأصحابه الفضلاء الذين كانوا بسبب هدى الرسول ﷺ : نجوماً يُهتدَى بهم ويُقتدَى بفعالهم .

بل وحسبنا أن نذكر دائماً قول الله تبارك وتعالى :

﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾(١) .

فلنذكر دائماً وأبداً هذه الحقيقة المهمة حتى لا نُشْغَلَ بالدنيا ونَنْسَى الآخرة ، وحتى نعمل ليوم رحيلنا قبل فوات الأوان ، وقبل أن يجيء اليوم الذى سيقول الإنسان المفرِّط فيه :

﴿ رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾ ﴾(٢) .

* وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ لرجل وهو يعظه :

« **اغتنمْ خَمْساً قَبْلَ خَمْسٍ : شبابَكَ قبلَ هَرمِكَ(٣) ، وصحَّتَكَ قبلَ سَقَمِكَ ، وغِنَاكَ قبلَ فقرِكَ ، وفَراغَكَ قبلَ شَغْلِكَ ، وحَياتَكَ قبلَ مَوتِكَ** » .

(رواه الحاكم وقال : صحيح على شرطهما)

* وعن سعد بن أبى وقاص رضي الله عنه قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله أوصنى . . فقال ﷺ :

---

(١) سورة الحديد : ٢٠ .

(٢) سورة المنافقون : ١٠ ، ١١ .

(٣) أى : اغتنم فرصة شبابك .

« **عَليكَ بالإياسِ[1] مِمَّا فى أيدِى النَّاسِ ، وإيَّاكَ والطَّمَعَ فَإنَّهُ الفَقْرُ الحَاضِر ، وصَلِّ صلاتكَ وأنتَ مُودِّع ، وإيَّاكَ وما يُعْتَذَرُ مِنْهُ** » .

(رواه الحاكم ، والبيهقى فى الزهد ، وقال الحاكم واللفظ له : صحيح الإسناد) .

* * *

(١) أيسَ منه أيْساً ، وإياساً : يئس وانقطع رجاؤه ، فهو آيسٌ ، وأيسٌ . والمراد أن يكون الإنسان قانعاً بما قدَّره الله له من الرزق ، ولا ينظر إلى ما عند الناس ، ولا ينتظره .